الأداء البلاغي في نثر ابن طاووس(ت٦٦٤هـ) كتاب اللّهوف في قتلى الطفوفِ مثالاً

أ.د. علي عبد الحسين جبير
جامعة القادسية / كلية التربية
ali.jbear@qu.edu.iq

الملخص :
يعدُّ ابن طاووس(ت٦٦٤ه) من الكُتَّاب البارزين في الأدب العربي ، ومن كُتبهِ المميزة كتاب (اللُّهوف في قتلى الطفوف ، والذي يصوُّر فيه سيرة استشهاد الإمام الحُسين وأهلِ بيتهِ وأصحابهِ (عليهم السلام) جميعاً ، وقد تناول الأديبُ الواقعةَ بطريقةٍ مؤثرةٍ ، وقد وقفنا فيهِ على الجانبين الإيقاعي والتصويري ؛لإبراز البُنى الفاعلة والمؤثرة فيهِ ولاسيَّما أبواب التوازي وتقنية الاقتباس وباب الصورة الشعرية التشبيهية والاستعاريَّة ، وقد كشفنا العناصرَ المهيمنةَ على النصوصِ لإبراز القيم الفكرية والشعورية المعبَّر عنها .

Abstract

Ibn Tawoos (D.664.AH) his from famous writer in Arabic literature , from his a famous book , book [All hoof in kautla Al-Tofoof] that he explain in it killed AL-Imam Al- Hussein and his all family and his all friends [peace on them] . He explain this battle influential method . We stood on both sides rhythm and photography to explain building actor and influencer in it ,in from the doors equal and technique excerption and picture poetry in from the door simile and metaphor , we find out the features dominant on the texts to explain values poetry and thoughts crossing for it.

المقدمة

يعدُّ كتاب « اللهوف في قتلى الطفوف » لمؤلِفهِ ابن طاووس من الكتب المهمة التي تصور وتنقل وتؤرخ لقضية مقتل الإمام الحُسين ـ عليه السلام ــ ، وهذا ما حدا بي إلى دراسة هذا الكتاب وما ورد فيهِ من خُطبٍ وروايات وأبياتٍ من الشعر ، وقد عمدتُ في ذلك إلى الدراسة الأدبية معتمداً على الأداء البلاغي طريقاً للكشف عن النصوص وإبراز البنى الإبداعية التي انطوى عليها هذا الكتاب ، ومعرفة القيمة الفنية والجمالية التي تستتر وراء تلك البُنى .

ومحاور هذه الدراسة قائمةٌ على ما يأتي :

أولاً : البنية الإيقاعية والصوتية.

ثانياً : الصورة الفنية .

أولاً : البنية الإيقاعية والصوتية:

الأصوات هي :((أصغر وحدات في النظام اللغوي))(عياشي،٢٠٠٣م، ص١٢٤) ، ولكن هذه الأصوات تترابط منسجمة في تكامل ؛ لتكون البنية الصوتية ، وهذه البنية الصوتية ناتجةٌ عن تفاعل الألفاظ جرساً ودلالةً وانسجاماً ، وهذا التفاعل لا يمكن أن يحصل إلا إذا انتظم في نظام هو الإيقاع ، إذ إنَّ إبداعية النص الأدبي تكمن في البنية الإيقاعية ، وإنّ جمالية الإيقاع لها أثرٌ كبيرٌ في جمالية بُنى

النص الإبداعي ، حتى نُظر إلى الإيقاع على أنّهُ من العناصر الأساسية في الأعمال الأدبية عامةً والنثرية خاصةً . وقد عُرف الإيقاع بأنهُ :((انتظامٌ في الصوتِ وتناسبٌ في البعدِ))(عياشي، د.ت، ص٨٣).

وقد استغل أغلب المبدعين الإيقاع قاصدين منهُ القيام ببناء مناطق الإبداع في النص ومساقط تأثيرها في نفس المتلقي .

وما يهمنا هنا من جملة التأثيرات التي يوحي بها الإيقاع ، التأثير في وحدات التواصل الاجتماعي :

المؤلف ← النص ← القارئ

إذ إنَّ البنية الإيقاعية تمارس تأثيراً خاصاً في البنى المشكلة لهُ من جهةٍ ، وتحفز القارئ للتفاعل مع العمل الأدبي من جهةٍ ثانيةٍ .

وبناءً على هذه المعطيات المقتضبة لأهمية الإيقاع والصوت فإنَّ إيقاع النثر في كتاب اللهوف في قتلى الطفوف وجدناهُ قائماً على ما يأتي :

أ- : إيقاع المقاطع الكلامية :

١/ التوازي : وكان على نوعين : أحدهما : التوازي المتسلسل .

والآخر : التوازي المتقابل (الثنائي) .

٢/ الترجيع .

ب- : الاقتباس.

أ- : إيقاع المقاطع الكلامية : وكان على المحاور الآتية :

: التوازي : هو تشابه التراكيب في أجزاء من الجملة أو الفقرة ، إذ تتساوى كل الأجزاء في الطول وعدد المقاطع والكلمات ، فتتماثل وتتعادل المباني في السطور المتقابلة (الإبراهيمي،٢٠٠٦م، ص٤٣)(جاكوبسون ،١٩٩٢م، ص١٠٨) . لذا عُد التوازي من العناصر الأساسية المكونة للإيقاع في النثر العربي عامةً .

وقد عبر عنهُ جاكوبسون بقولهِ)) : العديد من أنماط النثر الفني ينبني بمبدأ الموازاة)) (البغدادي ،١٩٨٩م، ص١٠)(عبد الجليل،١٩٩٨م، ص١٤١) . بل هو شرط عند بعض النقاد بقولهم إنَّ : ((العناصر المكونة للإيقاع في النثر العربي تخضع لقوانين الانتظام والتوازي والتناسب وكلها عناصر جمالية)) (وهبي ،١٩٨٤م ، ص٩٥)(الشيخ،١٩٩٩م،ص٧) .

بيد أن التوازي في كتاب اللُّهوف هو التوازي ذي الجمل القصيرة ؛ لأنهُ يكون أكثر تأثيراً من جهة الدلالة ؛ وقد ساعد هذا النوع من التوازي على خلق الانسجام الصوتي والإيقاعي بين الكلمات والمقاطع الصوتية من جانب ، وبين الدلالة والمضمون من جانب آخر .

أما أنواع التوازي التي رُصدتْ في كتاب « اللُّهوف في قتلى الطفوف » هي ما يأتي :

أ – التوازي المتسلسل : إذ يقوم هذا التوازي على سرد مجموع من الصفات قصد الاستقصاء والتفصيل لموصوف واحد ، فيقول في وصف جماعة عبيد الله بن زياد (ابن طاووس،١٩٩٣م، ص١٠٨):

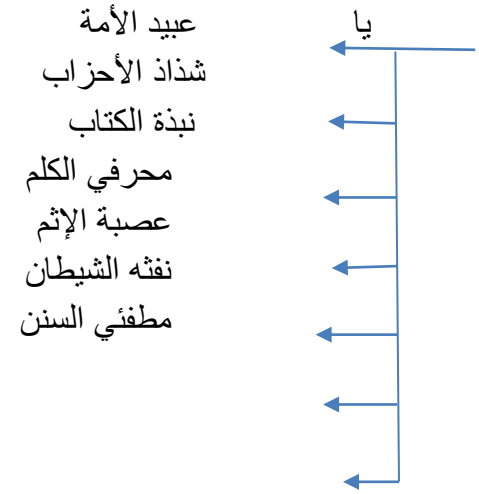

نلاحظ أنَّ النص← اعتمد على التوازي المتسلسل في عرض الصفات ، بوصفهِ بنيةً موسيقيةً قادرةً على تجسيد الاهتزازات العاطفية التي تتغنى بالخصال السيئة التي حملها أعداء الامام الحُسين (عليه السلام) . فهذه التشكيلة الصوتية جاءتْ مؤثرةً ، فلا يتسرب إليها الملَلُ من جراء التركيز على لونٍ واحدٍ ، فالتوازي المتسلسل خلق بدورهِ إيقاعاً متواشجاً متفاعلاً مع القيم الفكرية والشعورية المعبَّر عنها .

فالإمام أبرز الصفات السيئة لهؤلاء القوم الذين يقفون إلى جانب يزيد بن معاوية ، وأنهم لا يملكون حسباً شريفاً ، ولا مذهباً في القولِ نقياً ، وكانوا أخسّاء أخذهم إلى هذا الموقف الطمع ، وأنهم في موقفٍ نذالةٍ لا يُحسدون عليه ، فهذه الصفات التي ذكرها الإمام ــ عليهِ السلام ــ ونقلها ابن طاووس في كتابهِ ازدادت روعةً وجمالاً بالتوازي المتسلسل ؛ إذ جاءتْ بتناسق إيقاعي زاد الأسلوب سطوعاً ووضوحاً ، وأظهرتْ اعتناء المبدع بنسيجه اللغوي وانتقاله من فقرة إلى فقرة ، ومن فكرة إلى فكرة ، وقد أوجدت هذه الإيقاعية تناسباً بين الألفاظ والمعاني يهز أوتار القلب أثناء عملية الاستجابة والتلقي .

لذا نرى أنَّ التوازي المتسلسل تحوّل عند الإمام ــ عليه السلام ــ إلى مناطق ومقاطع يندمج فيها الفكر بالصورة بالإحساس بالموسيقى .

ب ــ التوازي المتقابل (الثنائي) :

وهو التوازي الذي يقوم على تكرار قرائن ومتوازيات وجمل بين طرفين ، أو موصوفين في النص ، ومن ذلك قوْلُ الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ يومَ استشهادهِ هاجياً الدنيا وملذاتها(ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٥٧) :

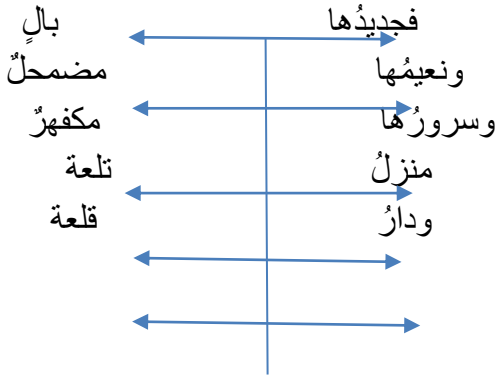

فالنص قائمٌ على التوازي المتقابل بين طرفين ، وهو من التوازيات المؤثرةِ التي توخّاها الإمام عليه السلام ــ ؛ ليؤثر في جمهور المخاطبين ، زيادةً على أنّ الموازنةِ بين الصفات الجميلة والقبيحة ، ظهر بشكل مميّز ، إذ خرجتْ تلك الصفات بطريقةٍ تثير الدهشة ، و تحوّل التوازي المتقابل إلى إيقاع لهُ تأثير كبيرٌ جعلهُ المنشئ بهذا الأسلوب يتعمَّقُ في الوجدان ، ويمتزج بالمشاعر والأحاسيس ، حتى أصبحتِ الدنيا لا قيمةَ تُرجى منها ويقول الامام الحسين ــ عليهِ السلام ــ أيضاً في توبيخ الأعداء يوم واقعة كربلاء (ابن طاووس،١٩٩٣م، ص١١٧) :

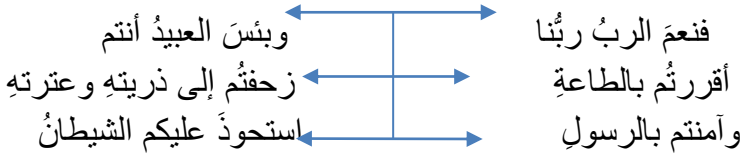

يحاول المبدع في هذا النسق الإيقاعي الذي يُحدثهُ التوازي المتقابل أن يوجّه الفِكر نحو الحدث لرسم صورة تنسجم مع ما يحشدهُ من ألفاظ مقارنة تجاه المخاطب ، وألفاظ هجائية يؤنِّب بها المخاطَب بأنَهُ(بئس العبد) ويقابلها في الجانب الآخر (نعم الرب)، وقد شكَّلت هذه الألفاظ بانسيابيتها وإيقاعها المتوازي موسيقى منتظمة تدفقت كأنها زخّات مطرٍ. ومن ثَمَّ فالتوازي المتقابل يعمل على خلق بنية إيقاعية تتناسب وطبيعة الخطاب النثري المُراد منهُ تأنيب المخاطبين ممن خرجوا عن طريق الشريعة والإسلام .

٢- : الترجيعُ : إن الترجيع : هو إيقاع صوتي بنيتهُ التكرار ، يحدث في أثناء الحوار ، يعمد المتكلم بهِ إلى إرجاع دوالّ بعينها شارطاً المقام والموقف المحدد (الوسط الظرفي)(عبد المجيد،١٩٩٨م، ص١٢٨) ويعدُّ من التشكيلات الايقاعية المهمة والمهيمنة على بنية النص في كتاب اللّهوف في قتلى الطفوف ، قاصداً منها خلق الجدَّةِ والتأثير في الخطابِ .ومنهُ حيث يقول (ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٤٢): ((قال الراوي : وجاء شيخ ودنا من نساء الحسين (عليه السلام) وعياله وهم في ذلك الموضع .

فقال : الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح البلاد من رجالكم ، وأمكن أمير المؤمنين منكم فقال له علي بن الحسين(ع) : يا شيخ هل قرأت القرآن ؟

قال : نعم .

قال : فهل عرفت هذه الآية □لا أسئلكم أجراً إلا المودة في القربى. □

قال الشيخ : نعم قد قرأت ذلك .

فقال علي (عليه السلام) له : نحن القربى يا شيخ فهل قرأت في بني إسرائيل وآت ذا القربى حقه .

فقال الشيخ : قد قرأت .

فقال علي بن الحسين فنحن القربى يا شيخ فهل قرأت هذه الآية واعملوا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى .

قال : نعم .

فقال له علي (عليه السلام) : فنحن القربى يا شيخ فهل قرأت هذه الآية انَّما يريدُ اللهُ ليُذهبَ عنكُم الرِّجسَ أهل البيتِ ويُطهركم تطهيراً.

قال الشيخ : قد قرأت ذلك .

فقال علي (عليه السلام) فنحن أهل البيت الذي خصصنا الله بأية الطهارة يا شيخ .

قال الراوي : فبقي الشيخ نادماً على ما تكلّم به .

وقال : بالله إنكم هم)) .

إذ تتجلى العبقرية عند ابن طاووس في إعادة تشكيل الأفكار والأغراض بقوالب وبُنى قادرة على استيعاب الكم الهائل من المشاعر والأحاسيس التي يحتويها النص، زيادةً على الدفق الحجاجي الذي ينطوي عليه هذا الخطاب المنسوب إلى الرسول الأكرم محمد ــ صلى الله عليه وآلهِ وسلم ــ. فالنص قد هيمن عليهِ إيقاع الترجيع ؛ لأنهُ الأجدى في جلب سمع القارئ إذ يقوم بدفع السأمِ والملل عنهُ بهذه البنية الصوتية الجاذبة(عبد المجيد،١٩٩٨م، ص١٢٨) ومن ثمَّ فالأسلوبية الصوتية في كتاب اللُّهوف قائمةٌ على نظام إيقاعي منسجم ومنضبط ، كوَّن بدورهِ مظهراً أُسلوبياً مميزاً ،وذلك بالاعتماد على بنى إبداعية وهي : ((بنية التوازي ، ، بنية الترجيع)) ، وقد ساهمتْ هذه البنى بشكلٍ فعَّال في عملية التكوين والصناعة الأدبية لدى الكاتب ابن طاووس في عرض الأحداث والأقوال المأثورة لأهل البيت ــ عليهم الصلاة والسلام ــ .

ب-: الاقتباس:

تضمين : ((الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ولا ينبّه عليه للعلم به))(ابن منظور، د.ت، ص١٦٩/٣)، حيث أورد ابن طاووس جملة من الأحاديث منها قول الرسول الكريم(صلى الله عليه وآلهِ وسلم) : إذ قال : ((أيها الناس إني قد خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأرومتي ومزاج مائي وثمرة فؤادي ومهجتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، ألا وإني انتظرهما وإني لا أسئلكم في ذلك إلاّ ما أمرني ربي ، أمرني ربي أن أسألكم المودة في القربى فانظروا كيف تلقوني غداً على الحوض وقد أبغضتم عترتي وظلمتموهم ألا وإنه سترد عليّ يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الأمة)) ((ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٦٤).

فقد عمد ابن طاووس في كتابهِ اللهوف إلى الاستعانة بالحديث الشريف للنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآلهِ وسلم) ، وقد انطوى هذا الحديث على تقنية الاقتباس من القرآن الكريم ، إذْ عزز هذا الاقتباس البنية الصوتية والدلالية في النص ، من إبراز لسلطة أهل البيت ومكانتهم في الدنيا والآخرة عند الرسول الأكرم وعند الله سبحانهُ وتعالى والتي لا يُدانيها شيء .

ومن الاقتباس ــ أيضاً ــ خطبة الحوراء زينب ــ عليها السلام ــ عندما رأت القوم يبكون بعد أن قامت بتأنيبهم : إذْ قالت ((ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٧٨) : ((...أتبكون وتنتحبون ، إي والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فلقد والله ذهبتم بعارها وشنارها ..)) .

وهذا النص فيهِ إشارةٌ إلى قولهِ تعالى ﴿فليضْحكُوا قليلاً وليبكُوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾(التوبة ، آية ٨٢) ، إذْ عمدتْ السيدة زينب ــ عليها السلام ــ إلى الاقتباس لتظهر لمن تخلَّف عن نصرة الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ أنَّ مصيرهم العار في الدنيا والعذاب في الآخرة . فضلاً عن الموسيقية المؤثرة التي أضفتها على النص من هذا الاقتباس .

ثانياً : الصورة الفنية : وهي قائمةٌ على ما يأتي :

١-: التشبيه :

يعدّ التشبيه من الأساليب البلاغيّة المهمّة التي من شأنها أن ترفع من إبداعية النصوص بالعلاقات التي يقيمها المبدع بين الألفاظ في النص الابداعي، والتي يكون أساسها التشبيهُ الذي يزيد من عمق النصّ وتأثيره ويبعدهُ عن المباشرة ؛ صفة الكلام المبني على وجه الحقيقة.

والتشبيه عمليّة مقارنة بين طرفين:(المشبّه والمشبّه به) لعلاقة تجمع بينهما(مطلوب ،١٩٨٦م، ص١٢٩/٢)؛ ولأهمّيّته وتأثيره في الخطاب اقترنت جودة المبدعِ بمقدار براعته وقدرته فيه لأنّه يجعل القارئ يتعمّق في النصّ، وينعم النظر فيه باحثاً عن العلاقة بين طرفيه ، والصفات المتماثلة بينهما، فإذا ما وجدها تحقّقت المتعة لديه، ونالت إعجابه لأنّ النصوص أوحت إليه معنًى جديداً لم يكن حاصلاً قبله.

وتتّضح قيمة التشبيه من كشف المعاني وإيضاحها فله ((روعة وجمال ، وموقع حسن في البلاغة ، وذلك لإخراجه الخفيّ إلى الجليّ، وإدنائه البعيد من القريب ، ويزيد المعاني رفعة ووضوحاً ، ويكسبها جمالاً وفضلاً)) (مطلوب ،١٩٨٦ م ، ص٣٣/١) ؛ وفي هذه الإبانة والإيضاح للمعاني إبعاد عن اللبس والغموض لأنّ التشبيه يحافظ على الحدود المتمايزة بين الأشياء(مطلوب ،١٩٨٦ م ، ص٤٣٦/١-٤٣٧).

ومما جاء في كتاب اللّهوف قولهُ عندما بدأتْ تقرع طبولُ الحربِ : ((أبا خالد نحن نبل كنانتك وفرسان عشيرتك إن رميت بنا أصبت وإن غزوت بنا فتحت))(ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٤٩٦-٤٩٧) .

إذْ يستعينُ المبدعُ بالبنية التشبيهية لإبراز مقاصد كلامهِ ، فهو يصور نفسهُ وأقرانهُ بنبل الكنانة للدلالة على القوةِ والبأسِ في المعارك واشتداد الحرب .

ومنهُ : ((يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم ؟ فقالوا بخ بخ أنت والله فقرة الظهر ، ورأس الفخر ، حللت في الشرف وسطاً ، وتقدمت فيه فرطاً))(ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٢٧) .

يرى القارئ ــ هنا ــ أنَ بني تميم استعانوا بالصورة التشبيهية بوصفها نسقاً فاعلاً مؤثراً ، حيث شبّهوا المخاطب بفقرة الظهر ، فهو مصدرٌ للقوةِ والعزيمةِ ورباطةُ الجأشِ .

ويقول-أيضاً-: ((قال الراوي : فتقدم عمر بن سعد فرمى نحو عسكر الحسين (عليه السلام) بسهم وقال : اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى وأقبلت السهام من القوم كأنها القطر ، فقال (عليه السلام) لأصحابه قوموا رحمكم الله إلى الموت))(ابن طاووس،١٩٩٣م، ص٢٦).

هنا الراوي يعتمد على الخيال في تصوير الكم الهائل الذي سقط على معسكر الإمام الحسين ــ عليه السلام ــ ، إذ صوَر تساقط النبل بزخّات المطر من شدَّةِ كثافتها وكثرتها .

من هنا نلحظ أن التشبيه كان عنصراً فاعلاً ومؤثراً في تصوير الأحداث التي مرّ بها الإمامُ الحسين وأهلُ بيتهِ (عليهم السلام) في واقعةِ كربلاء الأليمة .

٢- : الاستعارة :

تنماز اللغة الإبداعية بخصوصيّة معيّنة تجعلها تنحرف عن اللغة الوضعيّة ، وترتبط فيها الألفاظ بعلاقات جديدة ومبتكرة لا تخضع فيها إلى الحقيقة بل إلى المجاز الذي تمثّل الاستعارة أعلى مراحله. وهي طريقة من طرائق التعبير غير المباشر، التي تهدف إلى التخييل والإيحاء، لا إلى التقرير الذي هو سمة التعبير المباشر؛ إذ يقرّر الباثّ شيئاً أو يثبّته. وفي المجاز يكمن شيء من تفرّد لغة الأدب وخصوصيتها التي تترك صداها وتأثيرها في المتلقّي ؛ وهذه غاية المبدعين لكنّها ليست في منال الجميع.

ينفرد المجاز، والاستعارة منه، بقدرة خاصّة على الجمع بين الأضداد والأشياء البعيدة والعناصر المتنوّعة اللازمة للرؤية الإبداعية من خلال خلق علاقات جديدة بينها، فهو ((يختصر البعد بين المشرق والمغرب ويرينا الأضداد ملتئمة ، ويأتينا بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين)) (مطلوب ،١٩٨٦م، ص١٢٨/٢)؛ وهذا الجمع بين العناصر المتباعدة قد يدخلنا في عالم من الغرابة . فهذه الصورة القائمة على الاستعارة لا يستطيع أن ينالها الخاطر بسرعة أو أن يدركها بمجرّد النظر إليها، بل يحصل ذلك بعد تثبّت وكدّ النفس وتحريك الخيال واستحضار ما غاب عنه(مطلوب ،١٩٨٦م، ص٤٨/٢).

إنّ الاستعارة علاقة لغويّة تقوم على المقارنة كالتشبيه ، ولذلك يعرّفها بعض البلاغيين بأنّها تشبيه حذف منه أحد طرفيه(البغدادي،١٩٨٩م،ص٢٦)، ولكن مع التشبيه تبدو في النصّ الأدبيّ درجة من المعقوليّة والاعتياديّة لأنّ كلّ طرف على حدة ، في حين يتفاعل الطرفان في الاستعارة ويتّحدا ، ففيها تقوم عمليّة استبدال وانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة على أساس التشابه (البغدادي،١٩٨٩م، ص١٠١). وهذا التفاعل بين العناصر ولاسيّما المتباعدة يحقّق الجدّة والابتكار والغرابة التي تدهش وتمتع وتبعث على التأثير. فالاستعارة تظهر العمل الإبداعي المشتمل عليها ((في صورة مستجدّة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، [...]، ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها: أنّها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ)) (البغدادي،١٩٨٩م،ص٦٤). يزاد على هذا أنّ الاستعارة تكون أبلغ في توكيد الصفات للمعنى من التشبيه بفضل التفاعل والاتّحاد بين المستعار والمستعار له فتنزوي جميع الفوارق بينهما، أمّا في التشبيه فعلى الرغم من المبالغة فيه، فإنّ المتلقّي يبقى يشعر بأنّ المشبّه هو غير المشبّه به بفعل وجود أداة التشبيه(الإبراهيمي،٢٠٠٦م،ص٥٩).

إنّ أهل البيت ــ عليهم السلام ــ استعانوا بالاستعارة كثيراً ، ومع أنّها أقلّ من التشبيه في الكتاب إلّا أنّها أشدّ تأثيراً ، وأكثر قدرة على تحقيق المتعة والدهشة ، إذ كانت وسيلة بارعة في نقل المعاني ، وقد أبدع فيها أهل البيت واستعان ابن طاووس في مقالاتهم لأنها تظهر ثقافتهم الواسعة وخيالهم الخلّاق وبراعتهم اللغويّة.

وهناك أسباب أخرى رفعت من قدرة الشاعر في صياغة استعارته ، يأتي في مقدّمتها أثر فعّاليّة الإبداع المبكّرة ونبوغه في قول الشعر، وكذلك التأليف في مجازات القرآن والحديث ؛ وهي كتب كثر الحديث فيها عن المجاز والاستعارة(بركة ،د.ت،ص١١٦). وبذلك اجتمع لديه الحديث عن الاستعارة وتطبيقاتها عمليّاً في شعره . وفي هذا المعنى يقول: ((إنّ الكلام متى خلا من الاستعارة وجرى على الحقيقة كان بعيداً عن الفصاحة، بريّاً من البلاغة)) (بشر ،٢٠٠٠م ، ص٢٩٤) . ولا يعني اهتمامه بالاستعارة والمجاز هجران الحقيقة، بل أن يكون هناك توازن وتكافؤ بين الحقيقة والمجاز لكي يكون الكلام أقدر على تجسيد الواقع.

ومن الاستعارة في كتاب اللّهوف في قتلى الطفوف ما جاء من قول بحقّ معاوية ، حيث يقول : ((فقال : إن معاوية مات فأهون به والله هالكاً ومفقوداً ألا وإنه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قد أحكمه وهيهات والذي أراد اجتهد والله ففشل وشاور فخذل))(ابن طاووس ، ١٩٩٣م ، ص٤٣).

فصاحب الإمام الحُسين ــ عليه السلام ــ يزيد بن مسعود النهشلي يصوّر معاوية وسقوطهُ وهلاكهُ بأنَهُ كسرٌ لبابِ الجورِ والإثم وهما معنويّان إذْ ليس للجورِ وولا للإثمِ بابٌ ، وهذا من باب الاستعارة المكنية ، ثمّ يسترسل في الصورةِ الاستعاريةِ ويجعل للظلمِ أركاناً تتضعضع وهذاــ أيضاً ــ من باب الاستعارة المكنية .

ومنهُ ــ أيضاً ــ :

((قال الراوي : فقام الحسين (عليه السلام) خطيباً في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه وذكر جدّه فصلى عليه ثم قال : إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترَون وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها واستمرت حذّاء ولم تبقَ منه إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعي الوبيل ألا ترون إلى الحق لا يُعمَل به وإلى الباطل لا يُتَناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً فإنّي لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)) (ابن طاووس ، ١٩٩٣م ، ص٤٣).

فالبنية الاستعارية ــ كما يلاحظ ــ ساهمت بشكل فعَّال في نقلِ حكمةِ الامام الحسين(عليه السلام) ، وقد تمَّ تصوير مشاعره وذمّهِ للحياة ، وقد حوَّل الإمامُ الدُّنيا إلى كائنٍ حيٍّ يتغيّر ويتنكر ويُدبر معروفهُ ، وهنا من باب الاستعارة المكنية .

من هنا نلاحظ أنَ كتاب اللُّهوف في قتلى الطفوف هو من الكتب التي استعان فيها كاتبها ومؤلفها ابن طاووس على الأداء البلاغي الفاعل والمؤثر متمثلاً بمحوري الألفاظ والدلالات والمعاني متجسداً ذلك في البُنَى الايقاعية المؤثرة من توازٍ واقتباس وصور تشبيهية واستعارية إذ تعاضدت كل هذه التقنيات في تقديم بنية صوتية ودلالية مؤثرة عمد إليها الكاتب قاصداً جلب أسماع جمهور القُرّاء والتأثير فيهم لكي يعيشوا لحظات التجربة المريرة التي مرَّ بها الإمامُ الحسين وأهلُ بيتهِ وأصحابهِ ــ عليهم الصلاة والسلام ــ في معركة الطف الخالدة .

النتائج : ومن النتائج التي توصلنا لها هي كالآتي :

١/ برزت البنية الإيقاعية والصوتية في نصوص كتاب اللُّهوف بوصفها بُنى مؤثرةً وفاعلةً في تلك النصوص ، لاسيّما التوازي المتسلسل والتوازي المتقابل والترجيع ، إذْ جاءتْ تلك الأنواع من التوازي والترجيع لتخلُقَ بدورها إيقاعاً متواشجاً متفاعلاً مع القيم الفكرية والشعورية المعبَّر عنها .

٢/ اعتمدت أغلب النصوص على أُسلوب الاقتباس ، إذْ كان فاعلاً بوصفهِ بنيةً إبداعيةً وبديعية مؤثرةً من الناحية الصوتية والدلالية .

٣/ جاءتْ الصور الفنية في كتاب اللُّهوف مليئةً بالحيويةِ والخيال والتأثير ليبتعد الكاتب عن طريق هذه الصور عن المباشرةِ في الحديث ، وقد هيمنتْ الصور التشبيهية والصور الاستعارية على مجمل النصوص الإبداعية .

المصادر والمراجع

١- الإبراهيمي ، خولة طالب ، (٢٠٠٦م) ، مبادئ في اللسانيات ، ط ٢ ، الجزائر ، دار القصبة
٢-ابن طاووس، علي بن موسى (ت٦٦٤هـ) ، (١٩٩٣م) ، اللُّهوف في قتلى الطفوف ، ،ط١ ، ، لبنان ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .

٣-ابن منظور ، (د.ت) ، لسان العرب ، (د. ط) ، لبنان ، بيروت ، دار صادر .

٤-بركة ، بسام ، (د.ت) ، علم الأصوات العام ، (د. ط) ، لبنان ، بيروت . مركز الإنماء القومي

٥- بشر ، د. كمال ، (٢٠٠٠م) ، علم الأصوات ، مصر ، القاهرة ، دار غريب .
٦- البغدادي ، أبو طاهر ، (١٩٨٩م) ، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر ، تح : د. محسن غيّاض عجيل ، ط ٢ ، لبنان ، بيروت ، مؤسسة الرسالة.
٧-جاكوبسون ، رومان ، (١٩٩٢م) ، أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب ، تر : فالح صدام الإمارة ، ط١ ، العراق ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة.
٨-جيرو ، بيير ، (د.ت) ، الأسلوب والأسلوبية، تر : منذر عياشي ، لبنان ، بيروت ، مركز الإنماء القومي .
٩- الشيخ ، د . عبد الواحد حسن ، (١٩٩٩م) ، البديع والتوازي ، ، ط ١ ، مصر ، ، الإسكندرية ، مطبعة ومكتبة الإشعاع الفنية .
١٠-عبد الجليل ، عبد القادر ، (١٩٩٨م) ، هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي ، ط٢، الأردن ، عمان ، دار الصفاء للنشر.
١١-عبد المجيد ، د. جميل ، (١٩٩٨م) ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة ، (د.ط) ، مصر ، القاهرة ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٢-عياشي ، منذر ، (٢٠٠٢م) ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ط١ ، سوريا ، حلب ، مركز الإنماء الحضاري .
١٣/ مطلوب ، د. أحمد ، (١٩٨٦م) ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، العراق ، بغداد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.
١٤-وهبي ، مجدي ، (١٩٨٤م) ، معجم المصطلحات العربية في واللغة والأدب ، ط٢ ، لبنان ، بيروت ، مكتبة بيروت .